

## الحاكم والمحكوم

في ظل النظام الديمقراطية

للاستاذ علي حسنين الزير

كانت الصلة بين الحاكم والمحكوم مسألة المسائل منذ القدم ، وهي كذلك مسألة المسائل الى اليوم . . . درجت مع التاريخ تتطور بتطور أحواله وتقلباته ، وتخضع لكل عصر في اتجاهاته ونزعاته ، وتقوم في كل شعب على مايسير تقاليده وعاداته . . . فقد قامت هذه الصلة في فجر التاريخ على الاستبداد والظغيان ، فكان أبرز مظاهرها القوة وحب السلطان ، وكانت الجماعة المحكومة بحكم هذه الصلة لا تجد نفسها الا عند التسليم والاذعان ، تفقد شخصيتها في رغبة الحاكم وارادته ، ويتلاشى صوتها في صوت مطامعه وأنانيته . فهي مسلوبة الشخصية والارادة ، ليس لها أى حق ولكن عليها كل الواجبات . حتى اذا تطورت الجماعة البشرية بدأت تبحث عن نفسها وتدافع عن كيانها ، وتحرص على أن تجد شخصيتها فيما يربطها بالحاكم الذى يتصرف في شؤونها ، فهذهها التفكير على ضوء التجارب الى ابتداع كثير من نظم الحكم ، لايعتدنا منها الآن سوى النظام النيابى الذى تقوم على أساسه خير الصلات بين الحاكم والمحكوم ، والذى يسترشد الحاكم في ضوءه بما يجب أن يأخذه ويؤديه للأفراد والجماعات ، متجنباً الظلم والجور . متجنباً الفساد والشر ، فكان الأخذ بهذا النظام بشير خير للانسانية ، وطريق اصلاح للجمتمع ، وبداية حرب على الاستبداد وأنانية الظغيان .

لم تصل الجماعة البشرية الى هذه النتيجة الطيبة في يسر وسهولة ، وانما بلغت بعد منازعات قاسية وثورات دامية بذلت فيها الأمم ما بذلت من الجهود ، وقدمت من أجلها ما قدمت من التضحيات . وعلى الرغم من دول ، اعانت في هذا السبيل ، أصرت على الفوز بحتها وعلى أن تكون هي مصدر السلطة على نفسها ، وصاحبة الرغبة في اختيار من يتولى أمرها .

وإذا قلنا إن الحكم النيابى ، أعنى حكم الديمقراطية ، هو تراث الانسانية وثمرة جهودها وجهادها على مدى التاريخ ، فنحن لانبالغ في الحق ولا نعدو الصدق . وما نريد هنا أن نسرّد وقائع التاريخ أو نعدد الأمثلة والشواهد ، فقد كانت حوادث التاريخ في ذلك وما زالت تقطر بالدم ، ولا تكاد تخلو من ذلك سيرة أمة من الأمم ، بل ولا جماعة من الجماعات .

ويعرف أكثرنا أن اليونان قد سبقت في بحر التاريخ الى الأخذ بهذا النظام في الحكم ، وإقامة الصلة بين الحاكم والمحكوم على وضع ديمقراطى يمثل فيه صوت الشعب ورغبته . جرى هذا في نطاق محدود يلائم روح ذلك العصر . فليس من شك في أن الديمقراطية التي عرفت قديما في أئتنا تخالف الديمقراطية المصرية الى حد بعيد . ثم تطور الضمير الانساني وامتد احساس الأفراد ولأهم في فهم الديمقراطية وتقرير الحق لكل شخص مهذا كانت طبقته أو مهته . ولا بد هنا من الاشارة الى حقيقة صادقة ناطقة لم يفكرها التاريخ ولا يستطيع أن يجدها إنسان ، وهى ما قرره الاسلام من توسيع مدى الحكم الديمقراطي ، وإقامة الصلة بين الحاكم والمحكوم على رغبة الشعب واحترام إرادة الأمة ، فقد جعل المبايعه أصلا من أصول الحكم ، وجعل كلمة الجماعة هى العليا ، منها يستمد الحاكم قوته وسلطته . ولقد كانت أول خطبة خطبها أبو بكر الصديق رضى الله عنه يوم تولى الخلافة بعد الرسول صوات الله وسلامه عليه . أن وقف في المهاجرين والأنصار فقال "أيها الناس : لقد وليت عليكم ولست بخيركم ، فإن رأيتوني على حق فأيدوني ، وإن رأيتوني على باطل فقوموني ، أطيعوني ما أطعت الله فيكم" .

ومن بعده ضرب الخليفة عمر بن الخطاب أروع المثل في إقامة الصلة بين الحاكم والمحكوم على أمثل قواعد الديمقراطية ، وأبلغ ما يشده الناس من العناية والرعاية ، حتى لقب بأول حاكم ديمقراطى ، وإنه لجدير هذا اللقب ، فقد كان رضى الله عنه يقضى ليله ساهرا يتسمع لأثمة مكوم أو نائمة مظلوم ، ويسعى بنفسه لعيادة كل مريض ، ويحمل الطعام بين يديه الى كل جائع ، ويحذب على الجميع حذب الأب على أبنائه ، ويرى نفسه فى الرعية رب أسرة ، تقوم الصلة بينه وبين أعضائها على المحبة الصادقة والمودة الخالصة والألفة الكريمة . . وإنما أثمرت الى هذا المعنى لأنه المذهب الذى تسعى ليه الديمقراطية اليوم ، والغاية التي تلشدّها الانسانية فيما يجب أن تكون عليه الصلة بين الحاكم والمحكوم ، فقد أصبح مفهوما أن الحكم لم يعد مظهر سطوة وإمارة ، ولم يعد شعار الحاكم انتفاخ الأوداج والحديث بالايماء والاشارة . . أجل ، لم يعد هذا كله مما يصح فى أوضاع الحكم ، وما يحتمله وجدان الانسانية ، بل لقد أصبح الحكم مسئولية خطيرة وتبعة ثقيلة يحتملها الحاكم ، أانه هو محل الضمير والشرف فى رعاية المحكومين والإنصاف بينهم ، وإقامة العدل فيهم ، وتدير الرفاهية لهم ، والوفاء بكل مطلب من مطالبهم — يسعى اليهم فى هذا قبل أن يسعوا اليه ، ويتلمس هذا فيهم قبل أن يرفع لغيره عليه — فهو بإحساسه واحد منهم ، وهو بعطفه راع لهم ، وهو باهتمامه بكل فرد يعتبر بحق حاكما عليهم .

إن حياة الأمم والشعوب قد أصبحت متشعبة انتواحي والاتجاهات ، معقدة الميول والذرائع ، متشابكة الأغراض والرغبات ، فليس يكفى فى تديرها والملائمة بينها أن يجانس

الحاكم وراء مكتبه ، يضع الحلول لذلك على الورق ، معتقدا أنها مسألة حمايية تقدم بالأرقام وإضافة الأصفار . . . كلا ، وإنما يكون لتدبير لذلك بالمخاطبة والمعايشة ، والنزول إلى طوائف الشعب وأفراد الأمة ، للوقوف على ما يرجون من رغبات ، وما ينشدون من غايات ، وما يسيطر على عواطفهم ومعاشرهم من نزعات . . . يتلمس ذلك كله في إشاراتهم وأصواتهم ، وحركاتهم ، وفيما يبدو من المعالم والمظاهر على وجوههم .

لذا كان من أول الواجبات على الحاكم أن يرحل إلى الفلاح في قريته ، وأن ينتقل إلى العامل في مسمعه ، وأن يسير في عرض الطريق ، يختلط بكل هيئة وجماعة ، وأن يفتح باب مكتبه لكل فرد وطائفة ، فيجد نفسه بينهم ويخدمهم جميعا من حوله ، وهو وهم قوة متعاونة للصحة العامة ، وخير الوطن .

هذه ولاشك حقيقة ظاهرة ، وأحسب أن الحرب القائمة زادت وضوحا في الأذهان ، ومثلها أصدق تمثيل للعيان . فقد رأينا كيف كانت الأمة البريطانية وهي أعرق الأمم الديمقراطية - رأينا كيف كانت تستمد القوة في أحرع المواقف من المستر تشرشل رئيس وزرائها ، وكيف كان ذلك السياسي العظيم ، وهو من هو في رفعة المنصب وقوة الشخصية ، يرى من واجبه أن يقف في صفوف الشعب لمواجهة الشدائد ، بل لقد كان ، وهو الشيخ المسن ، يستقل الطائرة إلى أبعد الجهات غير عالية بما يصيب صحته من التلف ، وغير مستجيب لرغبة الأطباء في الاعتكاف والاقتصاد في العمل وبذل الجهد . وبهذا استطاع في أدق الظروف وأقساها أن يحفظ الروح المعنوية في أمتة قوية فياضة ، بل بهذا عرف كيف يحفظ الروح المعنوية قوية فياضة في نفوس كل من يضمهم التاج البريطاني ومحبيه .

لست أتحدث عن هذا الوضع في الصلة بين الحاكم والمحكوم على أنه شيء مثالي ، بل على أنه حقيقة واقعة أصبحت قبلة الشعوب ورغبة الأمم فيمن يتولى أمرها ويأخذ بمقاليدها . . . ولذلك أسمعتم الفكرة الديمقراطية في الحكم النيابي ، وأصبحت الأمة هي مصدر السلطات وصاحبة الإرادة في تمثيل ورغبتها . وإذا كنا نستمع إلى أصوات الأمم الديمقراطية ترتفع في الوقت الحاضر مطالبة بتحقيق الحريات الأربع ، واحترام حق كل فرد في المجتمع ، فليس هذا من المغالاة والإسراف في شيء ، بل إنه لصوت الانسانية ووجهتها ، ورغبة الشعوب وغايتها ، وهو دعامة الحضارة والعلم والأدب والفن ، وكل ضروب المعرفة التي أيقظت المشاعر ، وأنضجت الضمائر . وليس من شك في أن الانسانية اليوم قد أهدت إحساسها حتى أصبحت تضيق بألم الفرد ، وتفزع لشكواه ، وهي التي كانت في الأمس من البداوة بحيث لا تتحرك لأعنف مأسى الظلم والبطش في الجماعات .

فإذا كان الشر في بعض الأحيان يأتي بالخير ، فإن خير ما تخضت عنه الحرب القاءه  
هو احترام رغبات الأمم وحقوق الأفراد ، وأن يكون الحاكم خادما للشعب ساهرا عليه ،  
جاهدا في تدبير مصالحه . . أو بتعبير جامع ، أن يكون دائما عند رغبة الشعب الذي اختاره  
وأولاه ثقته .

ونحن دنا في مصر أشد الأمم حاجة الى الأخذ بهذا السبيل ، مادنا رغب في مسارة  
التطور العالمى ، وما دنا نود السير قدما في موكب الأمم الناهضة .

ومما يزيد في التيقن أن الأمة المصرية قد نضج تفكيرها وإدراكها في فهم هذه  
الحقيقة والتثبت بها ، بل والإصرار عليها . ولن نجد أحدا يترضى دلى هذا الشعور القوى  
عند الأمة ، لأنه بهذا يسيء الى نفسه والى مواطنيه . .

على حسنين الزير